لمحات من سيرة

الإمام أحمد رضا خان

رحمه الله تعالى

تأليف

أيمن ياسر بكار

تقديم

إدارة الشؤون العربية

التابعة لمركز الدعوة الإسلامية

لمحات من سيرة

الإمام أحمد رضا خان

رحمه الله تعالى

(١٢٧٢ – ١٣٤٠هـ)

تاليف:

أيمن ياسر بكار

تقديم:

إدارة الشؤون العربية

التابعة لمركز الدعوة الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي جعلنا من المؤمنين، ولا سبيل إلى معرفة عبوديته إلا سبيل الخاشين، ولا سبيل إلى خشيته إلا سبيل العلماء والعارفين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ﴾[1]، فأوجب طلب العلم وحرّم اتباع الوهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾[2]..

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، أعلم الخلق أجمعين، جاء بالحق والرحمة والنور المبين، ليهدي الخلق إلى صراط ربه المستقيم، وعلى آله الكرام المنتخبين، وصحابته الغر الميامين، وعلى من تبعهم وحمل رايتهم إلى يوم الدين وبعد:

فإن الأنبياء لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورَّثوا

---

(1) (سورة فاطر، الآية: ٢٨).

(2) (سورة الإسراء، الآية: ٣٦).

العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وإن الله تعالى يغار على ميراث نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فمهما ادّعى أحدٌ العلم والحق فلا يقبل منه حتى يكون على منهج أهل السنة والجماعة، على مذهب الأشاعرة والماتريدية اعتقاداً، وعلى مذاهب الأئمة الأربعة فقهاً، وعلى طريقة الجنيد تصوفاً وسلوكاً، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين)...[3]

فيقيض الله لهذا الدين في كل جيل خيرته وأفاضله لخدمته وأداء رسالته، ومن هؤلاء العلماء العلامة الجليل، والإمام العظيم، أوحد زمانه، وفائق أقرانه، مجدد الدين في عصره، سيدي الشيخ الإمام أحمد رضا خان الهندي رحمه الله تعالى، الذي كان أعجوبة في إحاطته بالعلوم واستحضاره تفاصيلها، ونادرةً في الذكاء

---

(3) (مسند البزار، ١٦/ ٢٤٧، رقم الحديث: ٩٤٢٣).

والحفظ، فكان بحق ناصراً للدين، ومعظماً لجناب سيد المرسلين، وقامعاً للمبطلين والمبتدعين، ومرشداً للتائهين والحائرين، ورحيماً ومحباً لإخوانه المؤمنين، وقد مضى على رحيل الإمام رحمه الله تعالى مائة عام، وبهذه المناسبة نقدم لكم إخوتنا في الله وأحباب رسول الله، هذه الورقات التي تناولت مختلف جوانب حياة الإمام وسيرته، وإن كانت قاصرة في حقه، فقد ألفت مجلدات في سيرة الإمام وعلومه، إلا أننا آثرنا أن نوجزها ونيسرها للقارئ، وما أعظم وأكرم أن نحيي ذكر العلماء والأولياء، فبهم عرفنا الحق وما يرضي الله، وبهم شيدنا الحضارة وسدنا الأمم، ولا قيام لنا إلا بالعودة إلى علمائنا والقيام بحقهم... والحمد لله رب العالمين.

الإمام أحمد رضا خان (مفخرة المسلمين)

الإمام أحمد رضا خان من كبار علماء الإسلام على مر

التاريخ، مضى على ارتقاء روحه الطاهرة -حتى تاريخ كتابة هذه المطوية- مئة عام، ولإمامته لأهل السنة ورياسته في العلم شهادات كثيرة من علماء زمانه، فقد كان رحمه الله تعالى بحراً في العلوم والمعارف، وعبقرياً في الفقه الإسلامي، كرس حياته للعلم والمعرفة، كيف لا؟ والعلم هو أرفع وأنبل ما يطلب وما يكتسب وما يتصف به المسلم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[4]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾[5].

فحاز هذا الشرف ونال الرتبة العالية فيه، بل آلت إليه الإمامة والرياسة في زمانه.

وعاش لنصرةِ الدين وخاصة في زمانه الذي وُصف بضعف الأمة الإسلامية، وتكالب الدول الاستعمارية

---

(4) (سورة المجادلة: ١١).

(5) (سورة الزمر: ٩).

عليها، فنشأت فرق ضالة مضلة برعاية تلك الدول خدمة لمصالحها الاستعمارية، فكان الإمام أحمد رضا سيف الدين والأمة المسلول عليهم.

وبمناسبة مرور مئة عام على وفاة الإمام، سنتناول في هذه الكلمات شيئاً يسيراً عن حياته وإنجازاته وآثاره وما قدّمه للأمة والدين، راجين من الله تعالى المدد والإعانة والتسديد..

ولادته:

ولد الشيخ أحمد رضا خان في مدينة بريلي في الهند يوم الاثنين ١٠ شوال ١٢٧٢ه الموافق ١٤ حزيران ١٨٥٦م في وسط أسرة علمية دينية صالحة[6]، فوالده العالم الجليل (نقي علي خان) رحمه الله تعالى كان متقناً للعلوم الشرعية، فقيهاً ومفتياً في الهند، واشتغل بالتدريس والتأليف، وله العديد من المؤلفات كـــ: "الكلام

---

(6) (ذكره مولانا ظفر الدين البهاري في "حياة أعلى حضرة"، ١/٥٨).

الأوضح في تفسير ألم نشرح" في خمس مائة صفحة و"أصول الرشاد لقمع مباني الفساد" وغير ذلك.

وجده الشيخ رضا علي خان من العلماء الأفاضل في بريلي عرف بالزهد والقناعة والحلم، وكان مربياً في السلوك، انتفع به كثير من الناس.

في وسط هذا البيت الكريم تفتح بصر الإمام أحمد رضا، وفي هذه العائلة المباركة تفتحت بصيرته، فقد كان يومه مملوءاً بالعلم والتعليم، والكتابة والتأليف، والعبادة والصلوات، والقرآن والأذكار، حباً لله وسعياً لإرضائه، وإقامة دينه، حباً لرسول الله وسعياً لوداده، وإحياءً لسنته.. فكان هذا سبباً في ظهور هذا الإمام العظيم وفي نبوغه وتفوقه على أقرانه، رحمهم الله تعالى جميعاً وأجزل مثوبتهم وأكرم نزلهم..

وأول ما سُميَ الإمام باسم (محمد)، ثم سماه جده أحمد رضا، وهو الاسم الذي عُرف به الإمام واشتهر بين

الناس[7]، وكما تعلمون أنّ المسلمين في مختلف البلاد يحرصون على تسمية أبناءهم باسم (محمد وأحمد) تبركاً بصاحب الاسم سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم، إلا أنّ هذا الحرص أكبر في باكستان، لشدة محبتهم لسيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم.

طلبه للعلم:

عرف الإمام أحمد رضا خان رحمه الله تعالى العلم والعلماء منذ ولادته، فإنّ البيت الذي ولد ونشأ فيه هو بيت العلم والتعليم والتأليف والتدريس، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نجزم متى بدأ الإمام أحمد رضا رحمه الله تعالى بطلب العلم، فالطفل يتأثر ببيئته ويكتسب منها منذ الصغر بل أنّ هناك دراسات علمية تقول: إنَّ الطفل في فترة الحمل يتأثر بوالدته وبتلاوتها للقرآن الكريم.

أما طلبه للعلم من خلال الصفوف والدراسة النظامية فقد

---

(7) (الملفوظ الشريف، صـ٣).

اشتغل به منذ صغره فقرأ على والده وجده وشيوخ آخرين، في مختلف العلوم الشرعية، ولم يتجاوز الإمام السنة الرابعة عشر إلا وقد أكمل دراسة العلوم الشرعية والعربية واستوعبها استيعاباً كاملاً.

وما يميز الإمام أحمد رضا أنه كان ذا عقلية فذة، وذكاء نادر، وسرعة في الفهم، وقوة في الحفظ، قد جمع الله تعالى فيه كل الصفات التي يتفوق بها العلماء، ففاق أقرانه لا في مجالٍ أو علمٍ واحد، بل في كل علم ولج بابه، وأذكر لكم بعض المعلومات عن الإمام أحمد رضا خان رحمه الله تعالى وطلبه وتحصيله للعلوم:

استكمل واستوعب العلوم الشرعية والعربية والفارسية ولم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، يقول رحمه الله تعالى:

(وأكملت تحصيل العلوم لمنتصف شعبان ١٢٨٦هـ وأنا إذ ذاك ابنُ ثلاثةَ عشرَ عاماً وعشرة أشهر وخمسة أيام، وفيه أصدرت أول فتوى، وفي هذا التاريخ أيضاً

فُرضت علي الصلاة وتوجهت إلي الأحكام)[8].

ألف أول كتاب له وهو في العاشرة من عمره وكان باللغة العربية:

اسمه (شرح هداية النحو) باللغة العربية في العاشرة من عمره، ثم ألف كتابًا آخر اسمه (ضوء الهداية في أعلام الحمد والهداية) في الثالثة عشرة من عمره رحمه الله تعالى..[9]

حصل على إجازة بالإفتاء في سن الرابعة عشرة من عمره:

أصدر الإمام أول فتوى في اليوم الذي أكمل فيه دراسة العلوم الإسلامية والعربية الرائجة، ونال إجازة الإفتاء عن أبيه العلامة المفتي نقي علي خان رحمه الله تعالى، وفوَّض إليه والده مسؤوليات الإفتاء كلها، واستمر في

---

(8) (ذكره مولانا ظفر الدين البهاري في "حياة أعلى حضرة"، ١/٢٧٩).

(9) (جد الممتار على رد المحتار، صــــ١/٢٢).

الإفتاء إلى أن مات رحمه الله تعالى.[10]

حفظ القرآن الكريم في شهر واحد:

يقول الإمام أحمد رضا: (بعض الناس كانوا يكتبون مع اسمي الحافظ، فقلت في نفسي: لأحققن ظن الناس فيّ، ففي نفس اليوم بدأت في حفظ القرآن الكريم من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء حتى حفظت القرآن الكريم كله في غضون شهر واحد).[11]

بلغ عدد العلوم التي أتقنها خمسة وخمسين علماً وفناً في العلوم الشرعية والعربية والفارسية والرياضية والعلوم المعروفة في زمانه:

فإتقانه لثلاث لغات، وانشغاله بالعلم طوال حياته منذ الصغر مع ما اتصف به من الذكاء والفطنة والموهبة المتقدة، والهمة العالية، والعزيمة القوية، مكنه من أن يتبحر في العلوم الشرعية وغيرها، فبلغ ما خاض غماره

---

(10) ذكره مولانا ظفر الدين البهاري في "حياة أعلى حضرة"، ١/٢٧٩).

(11) ذكره مولانا ظفر الدين البهاري في "حياة أعلى حضرة"، ١/٢٠٨).

واستوعب أصوله ومقاصده وأدواته أكثر من خمس وخمسين علماً (القرآن والتفسير وعلومه، والحديث الشريف وعلومه، والفقه وأصوله، والعربية وعلومها وآدابها، والتاريخ، والتصوف والسلوك، والعلوم العقلية) بالإضافة إلى علوم زمانه (الرياضيات والجبر والهندسة والمثلثات وعلم التكسير والهيئة والتوقيت وغيرها الكثير)

أما عن اللغات التي كان يتقنها تأليفاً ومحاضرة فهي ثلاث لغات:

(الأوردية والعربية والفارسية) حرص والده رحمه الله على أن يتقن الإمام أحمد رضا اللغة العربية والفارسية، لأنهما تضمان كنوز تراث الدين الإسلامي، ومن أراد أن يتبحر في العلوم الإسلامية، ويعرف دقائقها فعليه أن يتقن هاتين اللغتين.

بلغ مجموع مؤلفاته وتصنيفاته ما بين كتاب ورسالة الألف أو يزيد:

رزق الإمام أحمد رضا رحمه الله تعالى القدرة على التبحر في العلوم والمعارف، والإحاطة بجزئياتها، وشدة الذكاء وقوة الذاكرة، مما مكنه من سرعة الكتابة، وكثرة التصنيف، فجادت قريحته وفكره عن مصنفات عظيمة، جمة الفوائد، غزيرة المعارف، دقيقة البحوث، فهو لم يدع علماً وفناً إلا وألف فيه، إضافة إلى غزارة مؤلفاته فإنه كان رحمه الله غنياً عن مراجعة الكتب غالباً حين التصنيف والتأليف، فقد كانت تحضره العلوم مرتبةً في ذهنه دائماً، وعلى هذا شواهد كثيرة، منها: أنه في حجته الأولى سنة ١٢٩٥هـ التقى بالشيخ حسين بن صالح جمل الليل وطلب منه أن يشرح كتابه (الجواهر المضيئة) بالعربية فشرحه في يومين وسماه بـــ "النيرة الوضيئة في شرح الجوهرة المضيئة".[12]

وكذلك قدّم إليه علماء مكة المكرمة سؤالاً عن النوط (وهي العملة الورقية المتداولة بين الناس) وقد عجز

---

(12) (ذكره مولانا ظفر الدين البهاري في "حياة أعلى حضرة"، ١٣٣/١).

كبار العلماء عن حله، فلبى الشيخ حاجتهم وأجابهم بجوابٍ شافٍ كافٍ، وكتب كتاباً ارتجالاً من غير مراجع سماه بـــ "كفل الفقيه الفاهم في أحكام قرطاس الدراهم".[13]

وفي حجته الثانية طُلب من الإمام التحقيق في مسألة علم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالغيب، ورغم ظروف السفر وغياب المراجع فقد استطاع الإمام إنجاز كتابٍ قيمٍ جداً بتحقيقاته الباهرة خلال ثلاثة أيام، في عشر ساعات تقريباً باسم "الدولة المكية بالمادة الغيبية".... سبحان الله![14]

حقيقة نحن نقف أمام شخصية علمية هامة، وعبقرية نادرة، قل أن تتكرر، ومهما أسهبنا في الكلام عنه فإننا لن نستطيع أن نحيط بشخصية الإمام أحمد رضا وبعلمه وآثاره، وقد ظهرت عليه علامات النبوغ من نعومة

---

(13) (الأمن والعلا، صـــ٨).

(14) (الدولة المكية بالمادة الغيبية، صـــ٢٠ – ٢٢ ملخصاً).

أظفاره، وتحدث عنها كثيرٌ ممن عاصروه.

يقول الشيخ إحسان حسين عنه وكان زميلاً له في دراسته: (كان يقرأ على أستاذه مقدار ربع من الكتاب ثم يعكف هو على قراءته واستيعابه ثم يقرأه من بعد على أستاذه لا ينسى منه لفظاً ولا عبارة، مما يشهد له بقوة الذكاء وشدة الميل لتحصيل العلم).[15]

رسالته في الحياة:

عالمٌ جليلٌ لم يكن ليحيا في الدنيا هكذا، من غير همٍ وقضايا تجاه دينه وأمته، فقد قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: (العلماء ورثة الأنبياء)[16]، ويقول الإمام أحمد رضا رحمه الله تعالى عن رسالته وأهدافه في الحياة: (وأما العلوم والفنون التي أكرمني الله بها، ورزقت حبها وشغفت بها، فجعلتها لثلاثة أمور:

---

(15) (ذكره مولانا ظفر الدين البهاري في "حياة أعلى حضرة"، ١/١١٣ - ١١٤).

(16) (سنن الترمذي، ٤٨/٥ رقم الحديث: ٢٦٨٢).

- أولها وأولاها وأعلاها وأغلاها هو: حماية جانب سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين من المتطاولين.
- ثانيها: حراسة الدين والذبُّ عن حياضه، وخاصة ممن يدعون الدين وهم من المفسدين.
- ثالثها الإفتاء بقدر الطاقة على المذهب الحنفي المبين، تلبية لحاجة المسلمين).[17]

فهذه كانت رسالة الإمام أحمد رضا رحمه الله، وشغله الشاغل، ولأجلها خصص وقته، وأوقف حياته.

عبقريته في الفقه الإسلامي:

حصل الإمام على إجازة في الإفتاء في الرابعة عشر من عمره، فكانت مدة عمله في الإفتاء أكثر من خمسين سنة، وكان رحمه الله تعالى واسع المعرفة بالمذهب الحنفي ودقائقه، له قرابة ثلاثمائة كتاب في الفقه، منها:

---

(17) (الإجازات المتينة لعلماء بكة والمدينة، ص٩٢ – ٩٣ ملخصاً).

جد الممتار على حاشية ابن عابدين في سبعة مجلدات، وكفل الفقيه الفاهم في أحكام قرطاس الدراهم الذي أجاب فيه علماء الحرم الشريف حول مسألة الأوراق النقدية التي أعيتهم، وأعظم كتبه (العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية) في ثلاثة وثلاثين مجلداً، والتي تعتبر موسوعة في الفقه الإسلامي، ودائرة علومٍ ومعارف، من نظر فيها يتعجب من بصيرة الإمام الفقيهة، ودقة نظره وبحثه وتحقيقه، وهذا ما شهد به كبار العلماء في رياسة الإمام أحمد رضا.

قال الدكتور محمد إقبال الشاعر الشهير:

(لم يظهر فقيه طبّاع ذكيّ مثله في عهد "الهند" الأخير، وليس رأيي هذا إلاَّ بعد ما طالعتُ فتاواه، وتشهّد فتاواه بذكائه وفطانته وجودة طبيعته وكمال تفقّهه وتبحّره العلميّ في العلوم الدينيّة شهادةً عادلةً، وعندما يقيم مولانا أحمد رضا الفاضل البريلويّ رأياً يقوم عليه بالقوّة، ولا شكَّ أنَّه لا يُظهر رأيه إلاَّ بعد تفكيره العميق

وخوضه الطويل؛ لأجل ذلك لا يحتاج إلى الرجوع والتبديل في فتاواه وقضائه الشرعي، ولم يرجع الإمام عن أيّ مسألة وفتوى طول حياته، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).[18]

قال محافظ كتب الحرم الشيخ إسماعيل خليل المكّي:

بعد قراءة بعض أوراق "الفتاوى الرضويّة": (والله أقول! والحقّ أقول: إنّه لو رآها أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى لأقرّت عينه، ولَجعل مؤلّفها من جملة الأصحاب).[19]

وقال أيضاً: (بل أقول لو قيل في حقه أنه مجدد هذا القرن لكان حقاً وصدقاً، وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد).[20]

---

(18) (فاضل بريلوي اور ترك موالات بالأوردية للدكتور مسعود أحمد رحمه الله تعالى، صـــــ١٦).

(19) (الإجازات المتينة لعلماء بكّة والمدينة، صـــ٣٢).

(20) (حدوث الفتن وجهاد أعيان السنن للشيخ محمد أحمد المصباحي، صـــ٢٠٩).

نصرة الدين ومحاربة المبتدعين:

ظهر في زمان الإمام أحمد رضا رحمه الله فرق ضالة، غايتها تحريف الدين، والتطاول على مقام سيد النبيين، ومحاربة الأولياء الصالحين، وتفريق المسلمين، فتصدى لهم الإمام رحمه الله على كثرتهم وتنوعهم وتوزعهم، من غير مداهنة أو مجاملة، بكل حزم وقوة، فرد على القاديانية وغلاة الصوفية والفرق الضالة الأخرى، وألف كتباً ومصنفاتٍ ودعاهم وتحداهم في مناظرات، فكان يهابه الجميع، حتى أن من أهل البدع من كان يخشى أن يصرح ببدعته في حياة الإمام خشية رده رحمه الله عليهم.

محبته لسيدنا النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم:

كان رحمه الله تعالى محباً وعاشقاً لجناب سيدنا النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأضاف لنفسه اسم

ووصف (عبد المصطفى) قبل اسمه أي مملوك وخادم المصطفى، تقرباً وتوسلاً إلى سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان ينشد قائلاً:

يا رضا مالي أراك خائفاً

لك الأمان فأنت عبد المصطفى(21)

فاسمه هذا كان عنوان حياته، والدفاع عن الجناب النبوي الشريف وحمايته من المبتدعين كان شغله الشاغل، فألف الكثير من المؤلفات، وأصدر الفتاوى في إظهار مكانة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعلو شأنه، ورفعة قدره عليه الصلاة والسلام..

وكان شاعراً من الطراز الرفيع ليس في الأوردية فحسب بل وفي العربية والفارسية، وجعل جُلَّ شعره في مدح الحبيب صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ومن أشهر ما نظمه رحمه الله قصيدته الطويلة التي تسمى (القصيدة

---

(21) (ذكره الإمام أحمد رضا خان في ديوانه الشعري المعروف بـــ "حدائق بخشش" بالأوردية، صـــ١٧٩).

السلامية) وسميت كذلك لتكرار الصلاة والسلام على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيها، والتي يطلق عليها في الأوردية (البردة)، والقصيدة السلامية مدح لسيدنا النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وذكر لشمائله، فيذكر أن جبينه السعيد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ازدان بتاج الشفاعة، وحاجبه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم انحنى له محراب الكعبة إجلالاً، وأن عينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أينما نظرت أحيت ما نظرت إليه، وأنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أحسن الوجه، وفمه الشريف صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ورد رقيق، ولسانه مفتاح كن، وأسنانه كالدرر إذا بدت شع نور، ولحيته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كالبلسم، وهو نبات عطري له ثمار حساسة تتلف عند اللمس، وشبه الخاتم بالحجر الأسود، ولكن ليس لبيت الله بل لكعبة الروح وشبه الأظفار بالأهلة، وأما ركبتيه الشريفتين فقد جثا كل نبي على ركبتيه عند

سيدنا النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وتبعه في الطريق الذي سلكه، وأنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يتنحى عن الرضاع لمن يرضعون، فالكرم والإيثار كان من كمال خصاله منذ فجر حياته.. ويذكر آل بيته رضي الله عنهم وأئمة المذاهب والأقطاب، فهي حقيقة بردة العجم،[22]

وفي باكستان والهند الاحتفال بالمولد النبوي الشريف يبدأ ويختتم بإنشاد أبيات من السلامية، والنساء بمناسبة المولد الشريف وعيد الفطر والأضحى يجتمعن في بيت إحداهن ليشنفن الأسماع بإنشاد من السلامية..

وبمجرد أن تردد بعض أبيات هذه القصيدة في حشد من المسلمين في باكستان وشبه القارة الهندية حتى تجد الكل هائم في العشق المحمدي والدموع تجري مما تحركه هذه القصيدة في قلوبهم من معانٍ عظيمة

---

(22) (يُنظَر كتاب: المنظومة السلامية في مدح خير البرية، من الصفحة ٨٥ إلى الصفحة ١٠٥).

ومشاعر رقيقة إجلالاً وتعظيماً وتكريماً وحباً وشوقاً للمصطفى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ملامح شخصيته:

كان الإمام أحمد رضا قوي العزيمة، شديد الشكيمة، نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ، مع المتطاولين على دين الله، لين العريكة، سهل الخليقة، وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ مع إخوانه وأحبابه في الله، وهذا حال المخلصين الصادقين، الذين لا تحركهم حظوظ النفس، ولا شهوات الدنيا، وإنما الذي يبعثهم ويحكم تصرفاتهم ويضبط انفعالاتهم هو الدين..

لا يجامل ولا يداهن في الدين، يُسخر ما أوتي من العلم والمعرفة وقوة الحجة وفصاحة البيان لخدمة الرسالة المحمدية، ويحمل بشدة على المبتدعين الذين أرادوا الإفساد في الدين، فيقول في بداية كتابه في الرد على القاديانية: (فمنهم الأحمدية أو القاديانية، نسبة إلى غلام

أحمد القادياني دجال حدث في هذا الزمان، فادعى أولاً مماثلة المسيح، وقد صدق والله..! فإنه مثل المسيح الدجال الكذاب، ثم ترقى به الحال فادعى الوحي وقد صدق والله...! لقوله تعالى في شأن الشياطين (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ)..[23]، وكان يدعو رؤساء أهل البدع والضلال على اختلافهم وتنوعهم وكثرتهم، وما يجرأ أحد، ويقول في رده على المبتدعين: (وهذا العبد الضعيف بفضل ربه القوي اللطيف، أباً عن جد في خدمة السنة الزهراء، مقيمٌ على المبتدعة الطامة الكبرى، صنف كتباً تزيد على مائتين، ودعا كبراءهم إلى المناظرة لا كرةً ولا كرتين، فما أحار أحد منهم جواباً).[24]

فكان رجلاً قوياً متمكناً من العلوم والمعارف، مستحضراً لها في تفاصيلها وجزئياتها، صاحب حجة

---

(23) (حسام الحرمين على منحر الكفر والمين، صـــ٥٣).

(24) (الدولة المكية بالمادة الغيبية، صـــ٣٢).

وبرهان، كساه الله هيبة ووقاراً...

هذا في جانب دفاعه وحرصه على دين الله تعالى ورسالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأما مع أهله وإخوانه وأحبابه، فهو ذلك الرجل ذو الأدب والتواضع والحياء، الذي امتلأ قلبه محبة ودفئاً، فكانت حياته تشع جمالاً وبهاءً، فمن أحب الله تعالى الجميل الذي يحب الجمال، ومن عشق رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم السراج المنير، وسر الجمال في الكائنات، كان يقول: "لو شق قلبي وجُعل نصفين كان في الأول مكتوب لا إله إلا الله وفي الثاني محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم"...[25]

فمن كان هذا حاله فإنه لا يرى إلا الجمال ولا يصدر عنه إلا الجمال، ومن يتتبع شعر الإمام أحمد رضا رحمه الله تعالى، يجد الجمال والبهاء والصفاء والنقاء متجلياً ظاهراً...

---

(25) (سوانح الإمام أحمد رضا، صـــ٩٦).

عندما أراد الذهاب إلى الحج، كان قد بلغ من العمر الثانية والخمسين، فاستأذن والدته لتسمح له بالذهاب، وهو من هو في الرياسة والإمامة في العلم والإجلال من العلماء في سائر بلاد الإسلام...

كان محباً لإخوانه، حريصاً عليهم، ففي حجته الثانية وأثناء مقامه في مكة، تغيب عنه الشيخ صالح كمال المكي، ولم يره ليومين، فقال هذه الأبيات:

يومان ما فزنا بطلعتكم | ولو قدرنا جعلنا رأسنا
لقاء خليل للعليل شفا | ألا تحبون أن تبروا لنا
نا طلوع الشمس كل ضحى | وهل سمعتم كريماً يقطع الك

هذه أبيات جياد رقاق تنطق عن صفو المحبة وكرم الصحبة والعلاقة الواشجة بينه وبين إخوانه فهو لا يستطيع صبراً عن زيارة خليله له، بعد أن جمع الدين القويم بينهما في تلك المودة الصافية الدافقة.

---

(26) (المنظومة السلامية في مدح خير البرية، صـــ٤٧).

تصوفه وكراماته:

كان الشيخ أحمد رضا شيخ الطريقة القادرية العلية، التي تلقاها من الشيخ الشاه آل رسول المارهروي رحمه الله تعالى، وهو من كبار تلامذة الشيخ عبد العزيز الدهلوي، فقد سافر مع والده في ١٢٩٥ هـ إلى قرية مارَهْرة للقاء الشيخ آل رسول فبايعوا الشيخ وأجازه بالطريقة، فاستغرب حفيد الشيخ آل رسول، وهو الشيخ أبو الحسين النوري، وسأل جده عن السر الذي بينه وبين الشيخ أحمد رضا وكيف أجازه، فقد كان الشيخ آل رسول شديد الاحتياط في البيعة والإجازة، فقال له جده (كنت أفكر منذ مدة، لو أن ربي سبحانه وتعالى سألني: بما جئتني يا آل رسول؟ فماذا أجيب؟ واليوم اطمأن قلبي بحمد الله تعالى، فإن سألني المولى الجليل، فسأقدم له تلميذي ومريدي أحمد رضا)..[27]

---

(27) (جد الممتار على رد المحتار، صـــ١/٢٥ - ٢٦).

وقال: (ثم إن بقية الناس يأتوننا بوسخ القلوب والبواطن فنصفي قلوبهم أولاً ونبايعهم ثانياً، وهذا أحمد رضا وأبوه حينما أتيا كانا صافيي القلب، والذي يحتاجانه هو الربط والاتصال، فوصلناهما بطريقتنا القادرية وأجزتهما حتى يستفيد منهما الخلق إن شاء الله تعالى).[28]

فكان الشيخ أحمد رضا رحمه الله كما توقعه شيخه ومربيه الشيخ آل رسول، حرص على إصلاح الناس وتربيتهم وإرشادهم، وكان له طلاب كثر ومريدين، وذاع صيته في أرجاء العالم الإسلامي، وكان يأتيه طلبة العلم والمحبون من مختلف البلاد، لينالوا من علمه، ويسلكوا طريق التصوف على يديه، وكتب الله تعالى لطريقته الانتشار والقبول، فكان له الكثير من المريدين والمحبين، فالإمام أحمد رضا تولى دين الله فتولاه الله سبحانه...

---

(28) (جد الممتار على رد المحتار، صـ١/٢٦ – ٢٧).

وقد عرف عن الإمام رحمه الله كرامات كثيرة منها:

كان الإمام أحمد رضا يسافر بالقطار إلى بريلي، ثم إن القطار توقف لدقائق عند إحدى المحطات، وقد آن أوان صلاة المغرب، فنزل الإمام رحمه الله وأشار على رفقائه بالنزول معه فنزلوا، وما أن شرعوا بالصلاة حتى دق جرس القطار مؤذناً بالتحرك والمسير، وعندما همَّ السائق بالمسير لم يتحرك القطار، وحاول كثيراً دون فائدة، فقدم مفتش التذاكر ومدير المحطة والتف الناس ليروا ما الأمر، فنظر أحدهم إلى الإمام أحمد رضا وقال لعل القطار لن يسر وهو ينتظر هذا الرجل حتى ينهي صلاته، ولما فرغ الإمام من الصلاة وركب انطلق القطار في المسير (فمن كان لله كما يريد، يكن له كل شيء كما يريد)..[29]

ومما جرى من الإمام أحمد رضا خان أنه رأى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أثناء زيارته للمدينة،

---

(29) (حياة أعلى حضرة، ١/١٨٩ – ١٩٠).

وكان حينها يكثر من صيغة الصلاة الرضوية وهي: (صلى الله على النبي الأمي وآله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم صلاة وسلاماً عليك يا رسول الله).[30]

وفاته:

لما حانت وفاته سأل عن الوقت فأجابه ابنه الأكبر (الساعة الثانية و٣٧ دقيقة) فقال الإمام لابنه اذهب وتوضأ ثم أمره أن يقرأ سورة يس وسورة الرعد، وقد ورد أنهما يسهلان خروج الروح ويخففان سكرات الموت[31]، فسمعهما الإمام بخشوع تام، ثم شرع يدعو بأدعية السفر ثم أخذ يردد (لا إله إلا الله محمد رسول

(30) (جد الممتار على رد المحتار، صـــ١/١٨).

(31) حيث قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ» (سنن أبي داود، ٢/٢٤٤، رقم الحديث: ٩٧٣).

وكما ذكر الإمام السيوطي في تفسيره "الدر المنثور" قول جابر بن زيد رضِي الله عنه في قراءة سورة الرعد، أنه قال: "كَانَ يسْتَحبّ إِذا حضر الْميِّت أَن يقْرَأ عِنْده سُورَة الرَّعْد فَإِن ذَلِك يُخَفف عَن الْميِّت فَإِنَّهُ أَهْون لقبضه وأيسر لشأنه". (الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٤/٥٩٩).

الله) وبعد دقيقتين صعدت روحه إلى باريها وكان حان وقت صلاة الجمعة والمؤذن يقول (حي على الفلاح) في ٢٥ صفر سنة ١٣٤٠ هجرية الموافق ٢٨ اكتوبر ١٩٢١م في مدينة بريلي.[32]

ومما يروى أن رجلاً من أهل الشام من فلسطين قال سأل عن الإمام أحمد رضا من يكون؟ فقيل له: إنه عالم من أهل الهند يقيم في بريلي، فعزم على أن يرتحل إليها، ولما قدمها جعل يسأل عنه وعن داره ليزوره فيها، فقيل له: إنه لقي ربه منذ شهر، فمضى إلى داره والتقى بأهله، وقال لهم إنه رأى الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الرؤيا مع جمع من صحابته، وسأله أحدهم: من تنتظر يا رسول الله؟ فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: إنه في انتظار محمد أحمد رضا خان الهندي، وسأل أهل الشيخ أحمد رضا هذا القادم عليهم متى رأى هذه الرؤيا فحدد وقتها بنفس اليوم الذي مات فيه

---

(32) (سوانح الإمام أحمد رضا، صـــ٣٨٤، ملخصاً).

الشيخ.[33]

رحم الله الإمام وأكرم نزله، وجعله في عليين مع الصديقين والشهداء والنبيين، اللهم آمين آمين بجاه النبي الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أين الإمام أحمد رضا خان اليوم؟

كان الإمام رحمه الله محجة طلاب العلم والمريدين والسالكين، فعم خيره وكثرت ثماره، وخلف من بعده جيلاً من العلماء والمرشدين والمربين، الذين استمروا في حمل هذه الراية، فإذا أردت أن تعرف أين الإمام أحمد رضا رحمه الله تعالى فانظر في العلماء الذين تعلموا وتربوا بين يديه، وانظر إلى ما قدموه للدين والأمة، وهذا في الحقيقة أمرٌ لا يمكن حصره، ولكننا سنلفت الانتباه إلى إحدى ثماره الطيبة ألا وهو سيدي الشيخ محمد إلياس العطار القادري حفظه الله تعالى، وقد استمر

---

(33) (سوانح الإمام أحمد رضا، صـــ٣٩١، ملخصاً).

الشيخ في نصرة الدين وحماية جناب سيد المرسلين وإصلاح أمة المسلمين فبدأ الشيخ حفظه الله نشاطه الدعوي منذ ٣٨ سنة تقريباً، مستمداً من روحانية سلسلة الطريقة القادرية العلية، من الشيخ ضياء الدين المدني، والإمام أحمد رضا والشيخ عبد القادر الجيلاني وهكذا إلى سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، مخلصاً لله الواحد الأحد الفرد الصمد معتمداً عليه سبحانه، بدأ نشاطه بدعوة الناس إلى الصلاة وملء المساجد، وتحذيرهم من المحرمات والانشغال بالدنيا، وجعل هدفه الأول والأولى والأعلى (إحياء سنن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) كما كان هذا أول وأهم أهداف الإمام أحمد رضا رحمه الله، وكان الشيخ يسافر في البلاد متنقلاً من بلدة إلى أخرى داعياً إلى الله، وكانت كلماته تخترق القلوب مهما علاها أو غطتها الذنوب، تؤثر فيهم وتجذبهم إلى الحبيب والمحبوب، فكتب الله له القبول في الأرض، وجعل في دعوته البركة،

فهوت قلوب الناس إليه، والتفت حوله، وبايعته واندرجت في سلكه، واتبع هذا الداعية الكبير اثنان وعشرة ثم ألف ثم مئات الألوف ثم الملايين والملايين في باكستان وفي مختلف أنحاء العالم، حتى لُقِّبَ بأمير أهل السنة والجماعة، وحُق له هذا الاسم وهذا التكريم، لحرصه الشديد على أهل السنة والجماعة، في إصلاحهم وتعليمهم وتربيتهم، وحفظ عقائدهم حتى تقرَ عينا سيدنا وشفيعنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بأمته يومَ القيامة، وحرصه على إحياء سنن الحبيب صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وغرس حبه وحب آل بيته وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم في نفوس المسلمين، لقبوه بأمير أهل السنة والجماعة، والله سبحانه يرفع ويعز من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير...

الشيخ محمد إلياس رفع شعاراً منذ بداية دعوته فقال: (علي محاولة إصلاح نفسي وجميع أناس العالم إن شاء الله عز وجل) هذا الهدف الذي يعيش لأجله الشيخ

حفظه الله، وهذا الهدف الذي يحمله ويؤمن به مريديه الذين بلغوا الملايين حول العالم.

وقد أسس الشيخ مركز الدعوة الإسلامية العالمي، الذي يتألف من ١٠٥ أقسام، من هذه الأقسام قسم مدرسة المدينة المختصة بتعليم الأطفال القرآن الكريم وأحكام التجويد والسنن والآداب الإسلامية وغيرها، وقد بلغ عدد هذه المدارس ٣٠٤٩ مدرسة وعدد طلابها وطالباتها ١٤٤٦٣٣، ومنها: القسم الإعلامي ويضم ثلاث قنوات فضائية تبث على مدار الساعة بثلاث لغات (الأوردية، البنغالية، الانكليزية) والمقام لا يتسع للحديث عن بقية الأقسام، وما يميز دعوتهم أنها لم تقتصر على باكستان أو اللغة الأوردية، فهم يحرصون على الولوج إلى المجتمعات الإسلامية على اختلافها وتنوعها، بغية همٍ واحد، وقضية واحدة، تلك الراية التي رفعها سيدي الشيخ محمد إلياس الضيائي الرضوي القادري حفظه الله تعالى فقال:

((علي محاولة إصلاح نفسي وجميع أناس العالم إن شاء الله عز وجل))

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من هذه القافلة التي اتخذت من الرسالة المحمدية حياة لها.

والحمد لله رب العالمين....

وصلى الله وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

فهرس المحتويات